فى «مجموع رسائل الجاحظ»

للأستاذ محمد طاهر الحاجرى

تفضل الأستاذ الجليل «ناقد» فاستجاب للروح العلمية البريئة، ولما وجهناه إلى جمهرة الناقدين من دعوة خالصة، فكتب عن «مجموع رسائل الجاحظ» فصلاً من خصوله الناقدة فى الرسالة، عرض فيه لحروف تعرضت - فيما يرى - للتصحيف أو التطبيع أو خطأ الرسم، متهدياً فى ذلك بذوقه الأدبى ومحصوله اللغوى. وما زلنا نرجو منذ ظهر هذا المجموع أن يتاح له حظ النقد البصير؛ فليس أحق من الجاحظ - كاتب العربية الأول - أن تتضافر القوى وتتعاون الجهود على جلاء آثاره وإبرازها فى صورة أمينة دقيقة جديرة به، بعد أن تعرضت آثاره مدى الأجيال الطويلة للكثير الوافر من عوامل التحريف والتشويه والمسخ. ومن ذلك كان لعناية الأستاذ العلامة الناقد بالمشاركة فى جلاء هذه الطائفة من آثاره أجمل الأثر فى نفوسنا. وقد تجلت هذه العناية فى هذا الفصل، وقد وفق خير التوفيق فى بعض ما عرض له، وأما بعضه الآخر فإنا نرى فيه غير ما يرى

وإذا كنا نرى غير ما يرى فى أكثر ما عرض له، فرد كثير من ذلك - فيما يظهر - إلى الخلاف بيننا وبينه فى الأصل الأول فى النشر. فالأصل عندنا فى نشر أثر من الآثار العقلية هو إبراز صورة أمينة من ذلك الأثر، بريئة مما تركته عليها الأجيال المختلفة، والأيدى الجانية، من تشويه أو تحريف أو تزوير. وسواء بعد هذا أن تجىء هذه الصورة كما نشتهى وكما ترجوها مثلنا، أو أن تكون منحرفة عن هذه المثل. ذلك هو الأصل فى النشر، ومن هذا كان الناشر مقيداً فى عمله بقيود مختلفة، ومحكوما باعتبارات كثيرة، تمسك يده أن تنطلق، وتكف نفسه أن تتدخل، ولا تدع لمزاجه الخاص أو محصوله العلمى سبيلاً إلى أن يفرض نفسه، أو يطبع كلام المؤلف بطابعه، أو يترك عليه أثراً منه. فأما الأستاذ العلامة «ناقد» فيظهر من اتجاهه فيما كتب عن المجموع أنه يميل قليلاً إلى تحكيم المثل فى تحرير عبارة المؤلف

فمن ذلك تخطئته إيراد المثل: «كل مُجر فى الخلاء يسبق» (ص ١٠٢ س ١٩)، لأن المثل المشهور، أو الصورة المشهورة له: «كل مجر فى الخلاء يسر»، وهو نفسه يقرر أن المثل صورتين أخريين: «كل مجر بخلاء يسبق، وكل مجر بخلاء مجيد» فكأنما عز عليه أن يسوق الجاحظ المثل فى غير صورته المشهورة، وهذا ولا ريب نوع من تحكيم المثل الذى ذكرنا. وقد كان من الممكن أن نعتبر هذه الصورة المشهورة للمثل، لا لأنها الصورة المشهورة، ولكن لأن الجاحظ قد آثرها فى أكثر من موضع فى كتبه، كما نرى مثلاً فى الحيوان (١: ٨٨، ٤: ٢٠٧) وفى البيان والتبيين (١: ٤٩) الخ، وهذه إحدى الطرق المقبولة فى تفضيل قراءة على أخرى، ومع هذا آثرنا ما تعرضه علينا مخطوطتنا الوحيدة فى هذا الموضع، إذ ليس ما يدعو إلى فرض تحريفه، ولأن الجملة التى زاوج الجاحظ بها هذا المثل تضعف احتمال الصورة المشهورة له، فهو يقول: «كل مجر فى الخلاء يسبق، وكل مناظر متفرد بالنظر مسرور»

وكذلك أخذ الأستاذ الناقد علينا أننا ضبطنا هذا المثل: «لن تعدم الحسناء ذاما» (ص ١٠٤ س ٨) بحيث تصبح كلمة الذام اسم فاعل من الذم لا اسماً بمعنى العيب، إذ كان المثل: «لا تعدم الحسناء ذاماً»، ثم ذهب الأستاذ يفسر كلمة الذام كأن المثل أغرب علينا، فقاربنا وتصرفنا على ما فهمنا. والمثل بعد مشهور بتخفيف الميم؛ ولكنا رجحنا أن الجاحظ تصرف فى إيراد المثل على الصورة التى أوردناها، ليستقيم مع سياق المعنى الذى يريد تقريره عن الحسد، ودل عليه بكثير من الآثار والأمثال التى لا يستقيم معها ذلك المثل فى صورته المأثورة، إلا أن يكون الجاحظ ممن يلقى الكلام على عواهنه، ولا يعبأ أن يستشهد بما لا موضع له، ولا يتساوق مع غرضه، ويخالف بين أطراف الكلام مثل هذه المخالفة! ولكن الأمر الذى

لا يعيأ به الجاحظ حقيقة هو أن سرف فى المثل حتى يطوع له ، على ذلك النحو الذى لا بأس به

ومن هذا الباب أيضاً تخط « واستذرأت فى ظلك » مهموز الناقد ـ استذرى بفلان أى التـ أى فى ظله . وحسب الأستاذ هـ بل ليكون إثباتها منسوبة إلى بهذا اليسر ، فيما نرى ؛ وإنما ا يمكن القطع بأن هذا الخطأ هو وهل مثل هذا الخطأ مما لا سبي لا بد من تسميته خطأ ؟

أما إنه لو صح لنا هذا لـ كان لنا أن نستبقيه ، ولوجب علينا أن نستبدل به ؛ ولكن الأمـ هنا ليس كذلك . وما أكثر ما تتعاقب الياء والهمزة فى اللغة العربية ، لا فى باب الإبدال وحده ، بل فيما وراء ذلك ، فهو لا يندرج تحت تلك القواعد التى عنى بتنسيقها وبسطها علماء التصريف . وقد عقد أبو على القالى فصلاً في أماليه فى « ما يدال بالياء والهمزة » إلى كثير غير ذلك من الكلمات التى لا تقع فى باب الإبدال الرسمى

ولقد جاء فى بعض الآثار الأدبية ما يدلنا على أن الفرق بين ما أصله الهمزة وما أصله الياء لم يكن من الفروق التى تحسها السليقة اللغوية إحساساً قوياً . من ذلك ما جاء فى شعر الأعشى على رواية يعقوب بن السكيت :

إذا انبطحت جافى عن الأرض بطنها

وخوأها راب كهـامة جنبل

ويعلق أبو عبيد البكرى ، فى لآليه ، على هذا البيت بقوله : « وخوّأها مما همز ولا أصل له فى الهمز » ثم يذكر أن الرواية الأصح ، لهذا السبب ، هى رواية من قال : « وخوّى بها » . وهذا ، فى أكبر الظن ، نوع من تحكيم المثل فى الرواية ، كالذى ذكرناه من تحكيم المثل فى النشر

ومثل هذا ما أخذوه على شاعر إسلامى ، هو السعودى ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، فى قوله :

شققت القلب ثم ذرأت فيه هواك فليم فالتـام الفطور

فقد قالوا إنه أخطأ حين قال « ذرأت » ، وكان القياس أن يقول « ذريت » بالياء

وهكذا نرى أن وضع الهمزة موضع الياء ليس من الأخطاء الفاحشة التى يجلّ الجاحظ عنها ، أو نأنف له أن يقع فيها ، فنزعم ما وقع من ذلك خطأ ناسخ يجب استصلاحه . وما دمنا لا نملك الدليل على أن وضع الهمزة موضع الياء من صنع الناسخ ؛ وما دمنا لا نبعد أن يكون هذا من عبارة الجاحظ ، فإن مايقترحه الأستاذ الناقد من وضع « استذريت » موضع « استذرأت » يعتبر نوعاً من تحكيم المثل فى النشر

فهذا نوع من المآخذ التى أخذها علينا العلامة الناقد . وهناك نوع آخر يرجع إلى العجلة ، أو إلى إخطاء الدقة له ، كقوله فيما علق به على قول الجاحظ (ص ١١٠ س ١٧) : « لا سيما إن كان مع استبطان الحسد الخ » إذ يقول : « قلت جاءت ولا سيما فى هذا الموضع وفى غيره مجردة من ذينك الحرفين ، وأستبعد كثيراً هذا التجريد فى كلام المحدثين الأولين ، وإن أجاز ذلك نحاة من المولدين المتأخرين . وقد وردت اللفظة ومعها صاحباها فى ص ٢٤ ، ٦٨ » فلم تجئ « لا سيما » فى عبارة الجاحظ مجردة عن لا والواو ، بل عن الواو فقط ، على الصورة التى أوردناها فى هذه الفقرة

ومثل هذا ما جاء فى التعليق على هذه العبارة (٧١ : ١٦ ـ ١٧) : « وسواء ـ جعلت فداك ـ ظلمت بالبطش والشتم ، أو ظلمت بالدحس والدس » واقتراحنا وضع الدعس موضع الدس ، إذ كان ذلك أشبه ، فتوهم أننا إنما نضعها موضع الدحس ، ثم اقترح بدلاً من ذلك كلمة « الرس » . وهـذا نقد قائم على التوهم المحض . وما كان لنا أن نقترح كلمة موضع كلمة نظيرة لها فى المعنى ، وليس ما يمنع منها

وهناك نمط ثالث من المآخذ يرجع إلى الخلاف على الرسم ، وما نجب أن يطول الجدل حول هـذا ، إذ كانت قواعد الرسم

لم تتقرر بعد على أصل ثابت . وقد أخذ علينا الأستاذ الناقد أننا رسمنا التواطؤ مرة بالواو وأخرى بالياء ، ولعله حسب ذلك اضطراباً وتهافتاً ، مع أن كلا منهما يخضع لقاعدة من قواعد الهمزة المتطرفة ، على ما تنص عليه بعض المذاهب من أن الهمزة المتطرفة المكسورة ترسم ياء مطلقاً ، والمضمومة ترسم واوا إذا كان ما قبلها مضموماً . وكذلك جاءت كلمة « التواطؤ » مرفوعة فى (ص ٢٤ س ١٦) : « لا يمكن فى مثله التواطؤ » ومجرورة فى (ص ٤٠ س ١٩) : « وقام مجيء الأخبار من غير تواطىء ولا تشاعر مقام البيان » ، فالحالتان كما ترى مختلفتان

ومن هذا الباب أيضاً تخطئته رسم كلمة « غِنا » بالألف فهى ـ فيما يقول ـ مقصورة ترسم بالياء ، وممدودة ترسم بالألف والهمزة ، وهى هنا مقصورة بدليل كسر أولها ، فيجب أن ترسم بالياء ، ولكن لهذه الكلمة فى عبارة الجاحظ اعتباراً آخر ، فهى ليست مقصورة فقط ، ولكنها مقصورة منونة ، أثبت التنوين فى آخرها كما أثبت الكسر فى أولها ، وهذا هو موضعها (ص ١٨ س ٩) : « والإفراط فى جر المنفعة غِناً لمن أفرطت فى نفعه عنك » وقياس أبى عثمان المازنى أن مثل هذا يرسم بالألف . فإذا علمنا أن من علماء الرسم من يرى أن يكتب الباب كله بالألف على الأصل كان فى هذا ما يعضد رأى المازنى فى المثنون

وإذا كان الخلاف فى مثل هذا يستحق التأمل والوقوف عنده ، فالخلاف فى كلمة « السوء » فى قوله الجاحظ (ص ٣٠ س ٤) : « فتحرز من دخلاء السوء ومجالسة أهل الريب » أهى بالضم أم بالفتح خلاف لا جدى له ، فرد الكلمتين فى المعنى واللفظ واحد ، وإحداهما اسم والأخرى مصدر ، وما يذكر بينهما من فروق ليس هنالك . وقد قرىء بهما فى كثير من آيات القرآن الكريم ، كآية التوبة : « عليهم دائرة السوء » وآية الفرقان : ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء » ، وآية الفتح : (الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء) إلى غير ذلك من الآيات

وبعد ، فإن شكرنا للأستاذ الناقد لا ينقضى لهذا التوجه الكريم إلى (مجموع رسائل الجاحظ) ولما جاء فى مقاله من نقد عبقرى بصير ، كما فى كلمة (الذابيع البذر) (٤٥ : ١) ، ولما نبه عليه من أخطاء مطبعية ، كلمة (مَصارع) (٦٣ : ٧) وكلمة « السرف » (٦٤ : ١) ، وكلمة (يذب) (١٠٣ : ٧) وإنا لنأسف أشد الأسف لوقوع مثل هذه الأخطاء على شدة حرصنا أن يخلو هذا المجموع منها

ولكن أشد هذه الأخطاء التى نأسف لها أسفاً يعتلج فى القلب ورود هذه الكلمة (نسيسا) (١١٧ : ١٤) على هذه الصورة المسوخة ، فى أبيات مشهورة . رويت فى أمهات كتب الأدب العربى لحماسة أبى تمام وذيل الأمالى لأبى على والأغانى . وقد ظن الأستاذ الناقد أنها مصحفة عن « نفيسا » ، وهذا ولا ريب تصحيح طيب ، ولكنه مرتجل . وصواب الكلمة عندنا (قشيبا) ، كما جاءت فى رواية أبى على القالى :

وإذا اكتسى ثوباً قشيباً لم أقل يا ليت أن على فضل ردائه

وبعد ، فهذه كلمات نرجو أن نكون قد أنصفنا بها أنفسنا وأنصفنا بها الحقيقة ، وأنصفنا فيها أستاذنا الناقد الجليل ، والسلام عليه ورحمته وبركاته .

محمد طه الحاجرى

مسائل الشرق

(١) استبداد الاسلام

(٢) الاسلام وآسيا أمام المطامع الاوربية

للكاتب الفرنسى الشهير

أوجين يونغ

ثمن الكتابين ٢٠ والبريد ٦٣ مليما

يطلب من دار الكتب الأهلية تليفون ٤٩٥٦١

ميدان الأوبرا ـ مصر